نظرات في سورة يوسف (16)

إنا لنراها في ضلال مبين

طارق مصطفى حميدة

مركز نون للدراسات القرآنية

قال تعالى:(وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين).

من الطبيعي أن يبدأ الخبر بالانتشار في المجتمع، وليس أسرع انتشاراً من أخبار الفضائح، وبالأخص ما كان منها يتعلق بمواضيع الحب والجنس، ولن تعدم هذه الأخبار متبرعين من الخدم والعمال، ومن الأقارب والجيران وغيرهم.

والآية الكريمة تتحدث عن نسوة معدودات كما يوحي التعبير بجمع القلة، ويغلب أن يكن من نساء الطبقة العليا، ويتضح أيضاً أن منزلة امرأة العزيز أعلى من منازلهن، وقد يشير إلى ذلك تنكيرهن، في مقابل تعريفها بإضافتها لزوجها العزيز.

وقد جاء كلامهن عنها على وجازته، في غاية التركيز، واللمز والتجريح، فهي أولاً امرأة؛ والأصل أن تكون المرأة مطلوبة لا طالبة، ثم هي امرأة العزيز؛ فالفعل منها مستقبح كونها متزوجة، ثم لكون زوجها ذا مركز كبير، واستخدام الفعل المضارع (تراود) يفيد تكرار هذا الفعل منها، فربما يُغفر الخطأ مرة، لكن التمادي فيه مذموم، وكونها تكرر المراودة يدل على أن الذي تراوده عفيف رافض غير متجاوب معها، ومراودة العفيف أقبح من مراودة الفاسق، الذي تدعو حاله مَن في نفوسهم مرض للتحرش به، وهذا الذي تراوده فتاها، فهو عبد رقيق في بيتها فكيف تنزل عن منزلتها إلى مستواه؟ وكونه فتاها يوحي بصغر سنه النسبي، خاصة وأنه تربى في بيتها فهو بمقام ولدها، وفي رأيهن أن هذا السلوك منها يدل على أن حبه قد اخترق شغاف القلب منها، أو أحاط بها حتى لا تملك منه

فكاكاً، وخلصن إلى القول (إنا لنراها في ضلال مبين)، فهي في حكمهن غارقة حتى أذنيها في الجنون، والناس قد تتفهم أن يُجن رجل بامرأة، ولا تتصور العكس.

وحيث تحدثت النسوة عن أسباب استقباحهن سلوك امرأة العزيز، فيحسن بالمقابل، استعراض أوجه تميز يوسف عليه السلام وتساميه، فالنسوة ذكرن، وهن محقات، أن كل ما يحيط بتلك المرأة كان ينبغي أن يحول بينها وبين ما تورطت فيه، لكونها امرأة وكونها امرأة كبير، وبمقارنتها مع الذي تراوده، وبالمقابل فإن كل ما يحيط بيوسف عليه السلام، يدفعه للوقوع في الفاحشة، ومع ذلك لا يفعل.

فهو شاب في مقتبل عمره واشتداد عواطفه وغرائزه، وهو أعزب غير متزوج، وهو غريب عن أهله وبلده، فليس ثَمّ من يخجل منه أو يحسب له حساباً، وليس هو الذي يطلب حتى يتحسّب من تبعات الرد، بل هو مطلوب، في ظروف غاية في الخفاء والأمان، والتي تدعوه ذات منصب ومال وجمال، وهو عندها عبد رقيق، وخادم مأمور، والاستجابة لها تعني الصعود، وعدم الاستجابة له ثمن غير يسير، وليس للزوج ذي النصب والمكانة حضور يقلقه أو يخيفه، وعند ذاك فليس إلا خوف الكبير المتعال، هو الحصن الحصين في مثل هذه المواقف، حيث قال: معاذ الله، كما يردد: إني أخاف الله، كلٌّ من أراد أن يكون من السبعة الذين يظلهم الله في ظله، حين تدعوه امرأة ذات منصب وجمال.

يلفت الانتباه بعض التشابه في قول النسوة عن امرأة العزيز، وقول إخوة يوسف عن أبيهم، فقد حكمن على امرأة العزيز، كما حكموا على أبيهم بالضلال المبين، والسبب واحد عند الطرفين؛ وهو شدة الحب ليوسف: (أحب إلى أبينا منا)، (قد شغفها حباً)، فالذي استثار الإخوة ضد يوسف، كما يبدو، هو ذاته الذي حبب فيه امرأة العزيز، لقد رأى الإخوة فيه شخصاً سيكون له مستقبل، ذا مواهب تؤهله للقيادة، وبالتالي سيحرمون منها بل سيكونون له تبعاً، وعالم الرجال هو عالم الديوك، عالم التنافس والتصارع لأجل السيطرة، وليس عالم التبعية، فكان منهم ما كان، وظاهر أن هذا الأمر قد بدأ يتجلى لهم مع بداية بلوغه وظهور معالم الرجولة، فقد كان وقتها "غلاماً" طرّ شاربه، كما وصفه الوارد

حين أدلى دلوه: (يا بشرى هذا غلام)، وامرأة العزيز رأت فيه كمال الرجولة وجمالها، فشغفت به حباً.

أقول هذا لأن الأكثرين، يحصرون تفكيرهم في سبب افتتان امرأة العزيز والنسوة الأخريات بجمال وجهه، يظنون الأمر شبيهاً بمن يتعلقن بهذا الممثل أو الفنان، والأمر أكبر من ذلك؛ فإن الرجل كما يجذبه في المرأة شدة أنوثتها، فإن المرأة يجذبها في الرجل كمال رجولته، وكيف تحب النساء رجالاً بغير رجولة؟ كما قالت شاعرة عربية ذات يوم. وبذلك نتفهم أكثر أن مراودة المرأة ليوسف لم تكن من باب البعد الشهواني الجسدي، ولكنها يغلب عليها المنطلق والبعد العاطفي القلبي، فإن المرأة إذا أحبت فإنها تعطي الجنس كي تأخذ في مقابله الحب، والرجال على العكس حيث يعطون كلمات الحب ليأخذوا في مقابلها الجنس، كما قال مؤلفا كتاب جنس الدماغ، وهذا الذي نقول هو من باب تفسير السلوك لا من قبيل تسويغه وتبريره.